رحلـــة خالـدة

عَلاء الدِّيـن حسَـــن
aladin.hasan@gmail.com

قضـــت حكمـة الله (عزَّ وَجـلَّ) أن يكون أســـاس قوَّة هـذه الأمَّة، بعد نعمتي الإيمان والإســـلام، نـابعاً مِن وحدتها وتماســـكها. قال الله تعَالى: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}** الأنبيَـاء: 92. وقـال عزَّ وَجـلَّ: **{وَإِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً وَأَنَـا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}**(المؤمِنـون: 52).

وقال رسول الله ﷺ: ((المؤمنُ للمُؤمنِ كَالبنيَان، يَشدُّ بَعضُه بَعضـــاً))[1]. وقال عليه الصَّلاة وَالسَّلام: ((المسلمُ أخُو المسـلِم ..))[2].

وإذا كانت كلمـة التَّوحيد مدخلاً إلى الإيمان؛ فإنَّ توحيدَ الكلمة سرُّ بقاء هذا الإيمان. ولقد بلغ مِن قدســـيَّة تضـــامن هذه الأمَّة، أنْ أمرنا الله ﷻ بعبادات هي في أبعد غاياتها ســـبيل إلى تحقيق المنعـة والقوَّة. قـال تعَالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}**(الحجُرات: 10). فعلى مســـتوى الحيِّ الواحد، شرع الإسلام صلاة الجماعة. قال عليه الصَّلاة وَالسَّـــلام: ((صَلاةُ الجمَاعة أفضلُ مِن صَلاةِ الفذِّ – أي : الفرد – بِسـبعٍ وَعِشـــــرينَ درَجَة))[3]. وفي حديث آخر: ((يَدُ اللهِ علَى الجمَاعَة))[4]. والذِّئب، إنَّما يأكل مِن الغنم الشَّاردة.

وعلى مستوى البلدة، شرع الله (جلَّ شأنُه) صلاة الجمعة. قال تعَالى: {**حَافِظوا علَى الصَّلواتِ وَالصَّلاةِ الوُسطَى وَقُومُوا لله قَانِتين**}البقرَة : 283 . والصَّلاة الوسطى – قال البعض - هي صلاة الجمعة. وقال ﷻ: {**يَا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إذَا نُوديَ للصَّلاةِ مِن يَومِ الجمعَةِ فَاسعَوا إلَى ذِكرِ الله وَذَرُوا البَيع ..**}(الجمُعة: 9). ولم يقل ﷻ: وذروا الشِّراء؛ لأنَّه إذا لم يكن هناك بيع؛ فلن يكون هناك شراء.

وعلى مستوى العالمِ الإسلاميِّ أجمع، شرع الله فريضة الحجّ، الّتي تتكرَّر في كلِّ عام مرَّة واحدة: {**وَللهِ علَى النَّاسِ حِجُّ البَيتِ مَن استَطاعَ إليهِ سَبيلا**}(آل عِمران: 97). ولقد قيل: الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحجّ ميزان العمر.

مَعانٍ عَاطفيَّة:

والإسلام عندما شرع مناسك الحجّ ؛ إنَّما أراد أن يحوِّل الإيمان مِن معان نظريَّة إلى معان عاطفيَّة تربط الإنسان بنشأة الدِّين والمكافحين مِن أجل ظهوره، وبالمَواطن الأولى للوحي، وبسِيَر الدُّعاة والرُّعاة الّذين حملوا الأمانة، وعاشوا مِن أجلها؛ حتَّى أوصلوها إلينا..

ثمَّ إنَّ هذا البيت هو أوَّل مسجد بُني على ظهر الأرض لتوحيد الله، بُني على أنقاض الوثنيَّة الَّتي طالما عانى منها العقلاء، فكان مِن مراسم تحيَّة هذا البيت: أن يُطاف به سبعاً، مع التَّسبيح والتَّحميد والتَّوقير، بدءاً مِن الحجر الأسود. ثمَّ يأتي الطَّواف بين الصَّفا والمروة، إحياءً لسنَّة إبراهيم وهاجَر وولدهما إسماعيل؛ حيث تركهما إبراهيم بأمر الله، فامتثلت هاجر واثقة بعناية الله ورعايته، فجرت يمنة ويسرة سبعة أشواط بين الصَّفا والمروة، حتَّى شاء الله أن يفجر لها نبع زمزم.

حِكمَة المقَارَنة:

ولحكمة بالغة - علِمها مَن علِم، وجهلها مَن جهل- قرن الله تعَالى فريضة الحجّ بخليله إبراهيم عليه السلام.. قال تعَالى: {**وَإذْ بوَّأنا لإبراهيمَ مَكانَ البَيتِ أَن لاَ تُشرِكْ بِي شَيئاً وَطهِّرْ بَيتيَ للطَّائفينَ وَالقَائمينَ وَالرُّكَّعِ السُّجود**}(الحجّ: 26).

وقال عزَّ وَجلَّ: {**وَإذ ابتلَى إبْراهيمَ ربُّهُ بِكلمَاتٍ فَأتمَّهنَّ قَالَ إنِّي جَاعلُكَ للنَّاسِ إمَاماً قَالَ وَمِنْ ذرّيّتي قَالَ لاَ يَنالُ عَهدي الظَّالمين * وَإذْ جَعلنَا البَيتَ مَثابةً للنَّاسِ وَأَمناً وَاتّخِذوا من مقَامِ إبْراهيمَ مصلًّى وَعهِدنَا إلَى إبْراهيمَ وَإسماعيلَ أنْ طهِّرا بَيتيَ للطَّائِفينَ وَالعَاكِفينَ وَالرُّكَّعِ السُّجود**}(البقَرة : 124 – 125).

ابتلاه الله بالنّمرود الغارق في غيِّه وطغيانه؛ حيث قضت محكمته بعقاب في غاية الصّرامة تمثَّل في جلسة النّطق بالحكم بإحراق إبراهيم: {**قَالُوا حرِّقوهُ وَانصُروا آلهتكُمْ إنْ كنتُم فَاعِلين**}(الأنبيَاء: 68). فما كان موقف إبراهيم مِن هذا الابتلاء إلاّ أنْ صبر وصابر.. والصَّبر: حبس النَّفس، ومجاهدة الأهواء؛ والمصابرة: مغالبة الأعداء في الصَّبر. ولقد جاء في الحديث أنَّ جبريل عليه السلام جاءه، وهو مقيَّد في القاذف في اللّحظات الحاسمة، وقال له: أليست لك حاجة؟ قال: أمَّا إليك فلا. قال: فسل ربَّك. قال: حسبي الله ونعم الوكيل!..

الله أكبر.. ما أبلغ وأجلَّ وأعمق هذه العبارة.. حسبي الله ونعم الوكيل. ولأنَّها – أي: العبارة – بليغة وعميقة وجليلة، فقد شاءت قدرة الله أن تتحوَّل النَّار المتَّقدة الملتهبة إلى رَوح وريحان:{**قُلنَا يَا نَارُ كُوني بَرداً وَسَلاماً علَى إبْراهِيم**}(الأنبيَاء: 69). فكانت النَّار كما أراد الله تبارَك وَتعَالى.

وتتالت الابتلاءات على إبراهيم.. مِن ذلك: أمْرُ الله له بأن يذبح فلذة كبده وقرّة عينه.. كلُّ هذه الابتلاءات؛ لأنَّ إبراهيم إمام مرسَل، والإمام المرسَل عندما ينادي فإنَّ نداءه بأمر الله يُلبَّى: {**وَأذِّن فِي النَّاسِ بِالحجِّ يَأتُوكَ رِجالاً وَعلَى كُلِّ ضَامرٍ يأتينَ منْ كلِّ فج عَمِيق**}(الحجّ: 27).

والحكمة الأخرى البالغة في إقران الله تعَالى فريضة الحجّ بأبي الأنبياء، هي تعليم الله لنا بأن نجعل مِن حجِّنا إلى بيته الحرام بوابة التَّضحية مِن أجل المبادئ السَّامية والقيم المثلى. والله تعَالى يقول: {**إنَّ أَولَى النَّاسِ بإبْراهيمَ للَّذينَ اتَّبعُوهُ وَهَذا النَّبيّ وَالَّذينَ آمنُوا**}(آل عِمران: 68).

فهل عاهدنا ربَّنا جلّ جلاله كما عاهد إبراهيم مِن قبل؟ وهل ثبتنا انتصاراً لدِين الله، كما ثبت إبراهيم مِن قبل؟..

قد يقول قائل: ولكنَّنا ضعاف كبشر، مقارنة بأبي الأنبياء كنبيّ وأسوة! والجواب: إنَّنا عندما نطوف ببيت الله الحرام، لا بدَّ أن نقول بلسان الحال والبيان: إنَّنا حقّاً ضعاف، وها قد جئناك يا ربَّنا ساعين ملبِّين، وليس لنا أن نسعى أو نلبِّي إن لم تقْدرنا على ذلك.

فهذا الإقرار مِن العبد لخالقه ومولاه دليل على صلته وثباته.. هذا الإقرار يعيد المسلم كأنَّه مخلوق جديد، فيعود أنقى قلباً، وأصدق عزماً، بعد أن هاجر إلى ربِّه متحمِّلاً وعثاء السَّفر، و(السَّفر قطعة مِن العذاب)، وباذلاً مِن نفسه وماله.. فالحجُّ يجمع بين المال والبدن، ويعبِّر عن أبعد معاني المساواة: ففي صلاة الجماعة يقف كلُّ إنسان بجوار أخيه الّذي يصطفّ عن يمينه وشماله، الصَّغير بجانب الكبير، والغنيُّ بجانب الفقير، ولكنَّهم يتمايزون بملابسهم.. أمَّا في الحجّ، فإنَّ النَّاس يتجرَّدون مِن الثِّياب الّتي قد يختال بها البعض، ويقتصرون على قطعتي قماش لم

تعمل فيها يد الصّـنعة والتَّزويق، يلبســـها الملك والأمير، والمسكين والفقير، وقد تساووا كأسنان المشط.. وهذا تحقيق لمبدأ العودة إلى نقاء الطّبيعة، الّذي دعا إليه [جان جاك روسو]، وغيره مِن فلاسـفة العالم، ولم يحقّقوه.

والحجّ تجسـيد لمعنى السَّلام: **{وَإِذْ جَعلنَا البَيتَ مَثابةً للنَّاسِ وَأَمنا}**(البقرَة: 125). ولقد قال عمر بن الخطّاب ﷺ: (لو رأيت فيه قاتل أبي، ما مسسته بأذى). إنَّه أمان لا نظير له، يشمل الطَّير في السَّماء، ويشمل الصَّيد والنَّبات في الأرض.

وإنَّ أعداء الإسـلام يدركون خطر هذا المؤتمر، حتَّى قال مَن قال: سـيظلُّ الإسـلام صـخرة عاتية، مادام فيه: القرآن، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحجّ السَّنوي.

الذِّكرُ الدَّائـم:

ويبقى المقصـد الأوَّل مِن العبادات في الإسـلام: الامتثال لأمر الله ﷻ، والوفاء بحقِّه سـبحانَه وَتعَالى، إلى جانب تحقيق التَّضامنِ الإسلاميِّ على أوسع نطاق.. على أنَّ الحجَّ هـو أكثر العبـادات أثراً في ترسـيخ هذه المعاني؛ ففيه توسيـع لأفقِ المسـلم الثَّقافـيِّ والاجتماعيّ، وفيه تدريب على التَّضحية، وفيه منافع تهمُّ المسلمين، وفيه ذِكر دائـم:

{فإذَا أفَضتم مِن عَرفاتٍ فَاذكُروا الله عِندَ المشعَرِ الحَرامِ وَاذْكروهُ كمَا هَداكُم وَإنْ كُنتُم منْ قَبلِهِ لمنَ الضَّـالينَ ثمَّ أَفيضُـوا مِن حَيثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسـتغفِروا الله إنَّ الله غفورٌ رحِيم.فَإذَا قَضيتُم مَناسكَكمْ فَاذكُروا الله كَذِكركم آباءَكمْ أَو أَشدَّ ذِكرا}البقرَة : 198 – 200.

فذِكر الله هو الأسـاس في هذه المناسـك ؛ لذلك يُسـنُّ للحاجِّ أن يصـيح بالتَّلبية: (لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيك، لبَّيك لاَ شَريك لكَ لبَّيك، إنَّ الحمدَ وَالنِّعمة لكَ وَالمُلك، لاَ شريكَ لَك).

- وإذا نعتنا الحجّ بالرِّحلـــة، فإنَّها ليست برحلة ميتة، وإنَّما هي رحلة إيمانيَّة كريمة مباركة تُغفَر فيها الذُّنوب، وتمحى فيها العيوب، وتطمئنُّ فيها القلوب❐

الهوامش:

1- البخاريّ 467 ، ومسلم 2585 ، مِن حديث أبي موسى.

2- صحيح البخـاريّ، كتاب الأدب، حديث رقم 6066. مسـلم، ك البِرّ، حـ 2564 ، مِن حديث أبي هريرة.

3- البخاريّ: 271/2 ، ومسلم : 650/2.

4- أخرجه التِّرمـذيّ برقم 2167.